لئلا ننسى

« في مصر الآن ضيف كريم ، ولكنه ليس غريباً عن مصر فقد كان فيها قبل بضع سنوات منذ مدة طويلة مدير القسم العربي في المدرسة العبرية وله في مصر أصدقاء من كبار العلماء والادباء . ثم عاد الى فلسطين مفتشاً لمعارف يافا ، الى أن انتهت خدمته مع الانكليز المنتدبين وتم تحت سيطرة اليهود ، فاعتزل الخدمة وأسس مدرسة خاصة لتعليم المترسط (متريكيولاشن) فكان الاقبال عليه عظيماً وتخرج منها عدد من الشبان ، لان الاهالي هناك يعرفونه عالماً أديباً عربياً . ثم انتخب عضواً في المجمع اللغوي العلمي العربي — هو الاستاذ خليل السكاكيني

— ١ —

نحن في ذُروة العَلْياء من جبل القطمون الى الغرب من القدس القديمة . في الشهر الرابع من سنة ١٩٤٨ ، والقتال بيننا وبين العدوّ مستمرٌّ مستمرٌّ . تمرُّ الليلة تلوَ الليلة ونحن أيقاظ لا تأخذنا سِنة . ونحن وقوف وراء أكياس الرمل لا نصيب شيئاً من الراحة ، والعدوّ يشن الهجوم تلو الهجوم ، فيتصدّى له « ابرهيم أبو دبّه » بطل القطمون على قلة رجاله وعتاده فيردُّه خاسراً .

ألا امثلُهُ ومثل رجاله ليكن الأبطال

القتال مستمرٌّ مستمرٌّ ، وقد بلغ الذروة ليلة الخميس ١٩٤٨/٤/٢٩ أمُّ الأرض فقد كانت تميد تحت أقدامنا ، وأما الدار فقد كادت تسقط على رؤوسنا ، الى أن انبثق الفجر ، وإذا بابرهيم أبو دية قد أقبل من ساحة القتال وهي على بضع خطوات من دارنا أشعث أغبر ممزق القميص مثخناً بالجراح . لو رأيته لما عرفته . وهو يقول : لقد قتل أكثر رجالي .

قلنا : ألم تستنجد أحداً ؟ قال : لا أستنجد أحداً ، إذا لم ينجدوني من تلقاء أنفسهم فلا خير فيهم .

القتال مستمرٌّ مستمرٌّ ورجال يقتلون ، وعتادنا أوشك أن ينفد

أما ابرهيم أبو دية فتنقل برجاله الأبطال الى مكان آخر قريب ليستأنف منه القتال .

وأما نحن فقد ترددنا كثيراً قبل أن أجمعنا على ترك تلك الناحية إلى أجل . وكنا آخر من ترك القطعون من سكانه

... أوعينا في حقائبنا بعض ما نحتاج إليه : حرصت أن آخذ دفاتري وأوراقي لعلي أحتاج إليها . ولكن نسيت الجميع ، حرصت أن آخذ نارجيلتي وهي دماغي الثاني لا أدخن إلا قرأت أو كتبت ، ولا أقرأ أو أكتب إلا دخنت . ولكن أخذت التاريج ونسيت النارجيلة

تركنا الدار والأثاث والمؤونة والمكتبة والثياب والبيانو العظيم الذي لا نجد له مثيلا . والثلاجة الكهربائية الكبيرة التي كانت وقفاً على المحلة كلها . ما احتاج جار الى قطعة ثلج يمدّ بها شرابه الا جاء يحمل سطله وأخذ حاجته بل ما يزيد عن حاجته . وفوق ذلك كله تركنا الأمانات الثمينة التي أودعنا إلينا أصحابها على اعتقاد منهم أن بيتنا ممتنع سمعٌ إذا تطاولت إليه الأعناق جذبت . واذا امتدّت إليه الابصار ردّت وهي كليلة . تركنا ذلك كله في كفالة الملك قطمير وهو الملاك الموكل بالأمانات .

— ٢ —

الوداع يا دارنا ! يا مستودع الأمانات . يا مجمع الخلان ، يا مقصد السمّار والزوار في الليل والنهار .

لم يكن يمر بك أحد ولو ابن سبيل إلا دخل فشرب القهوة ، واذا كنا على الطعام أشركناه في ما تيسّر . ولكن نحمد الله أن المتطفلين على كثرتهم قليلون

الوداع يا دارنا ! يا دار الأمة ، يا ملتقى أقطاب السياسة وزعماء الأدب ورجال الصحافة . وكل من كانت محطة الإذاعة تُدعوهم من كبار الخطباء والفنانين من مصر ولبنان وسوريا والعراق كأني أنا الداعي . وكأن داري دار إذاعة .

الوداع يا دارنا ! يا سُفّة اخوان الصفاء . يا ايوان كسرى ، يا قصر غمدان ، يا قصر بهرام جور ، يا قبة سحران . يا قصر رغدان — قصر الملك عبد الله في عمان — يا مَوْرِدَ اليُمْن — قصر الدكتور منصور فهمي باشا في القاهرة — يا سدير ، يا خورنق ، يا ارم ذات العماد ، يا إزال يا ظفار يا تدمر ، يا كوتنتنال ، يا ميناهاوس ، يا سيراميس ، يا بلميرا ، يا كوكا كولا ، يا عمان لايت سوب ! ! !

كم عقدنا فيك من جلسات . وألفنا فيك من حفلات لتناول الشاي أو الغداء أو العشاء فكان الضيوف الكرام يلتهمون ما لذّ وطاب التهاماً ، كأن بيني وبينها ثأراً !

الوداع يا دارنا ! لا يجهلك أحد ، بل بك تعرف الدور . إذا سأل أحدٌ : أين دار فلان ؟ قالوا له : الى يمين دار السكاكيني . انى يسارها ، من يزر فلسطين ولم يزرك فكأنه لم يزر فلسطين !

* * *

الوداع يا خزانة المشروبات . لم نفتحك إلا محتفلين . ومن دعابات ولدي إنه دعا مرة أصدقاءه ، وهم كثير والحمد لله ، الى حفلة سماها « حفلة فتح الخزانة » ولكنه ذيّل رفاع الدعوة بقوله : الرجاء رفض الدعوة .

ولكنهم لم يرفضوا . وكان ما كان . فظُنّ خيراً ولا تسأل عن الخبر

لا أذكر تلك الساعة الهائلة التي خرجنا فيها من الدار مع الباري عليه سواد والقذائف تتساقط حولنا ، والرصاص يتطاير فوق رؤوسنا إلا دقّقت يداً بيد ، وقلت : كيف لنا أن نأخذ معنا كل ما في الخزانة من زجاجات ، ألا تمست العجلة !

— ٣ —

الوداع يا مكتبتي ، يا دار الحكمة . يا أكاديمية أفلاطون ، يا رواق زينو . يا حديقة أبيقور !

كم أحييت فيك الليالي الطوال أقرأ وأكتب والليل ساجٍ والناس نيام ، ولا يهرّن من وجدي إلا أني نقلت يومياتي وهي غلاً أترفاً من الصفحات الى مكان أمين ، فقد كان من ديدني منذ حداثتي أن أكتب كل يوم ما يمر بي من أحوال ، وما يعن لي من خواطر ، وما توحيه اليّ مطالعاتي ، وما التقطه من مخالطة الرجال ذوي العقول .

ولكن لا يقلق بالي إلا أن أكون قد نسيت يوميات أميركاء ويوميات الحرب العالمية الاولى ، ويوميات السجن في دمشق ، وخطباً كثيرة في موضوعات مختلفة مما يخطر ولا يخطر في البال . وكل هذه اليوميات والخطب عزيزة عليّ كأنها أفلاذ كبدي .

— ٤ —

الوداع يا كتبي النفيسة : أقول كتبي وأنا أعني أولاً أني لم أرثها عن الآباء والأجداد ، فقد أدركت من الرجال وليس في بيتنا كتاب إلا الانجيل توارثناه جيلاً بعد جيل لا لنقرأه ولكن لنتبرك به بدليل اننا وضعناه على رفّ عالٍ لا تصل اليه يد ، ووضعنا أمامه قنديل زيت لا يطفأ إجلالاً له .

وأعني ثانياً أني لم استعرها من الناس كما يفعل بعضهم ممن يجيزون سرقة الكتب

يستعيرونها ولا يردونها. فمهما لم أرضها ولم أستعرها، ولكنها من انشاء هذا العاجز، لم أحتج إلى كتاب إلا اقتنيته ولو اشتط صاحبه في الثمن.

إذا صحت أن مؤلفاً أو كتبياً قد أسبح في غفلة من الدهر ضيناً لا سمح الله، فاعلموا أن الجانب الأكبر من هذه الثروة هو من جيب هذا العاجز الفقير اليه تعالى، وما من كتاب اقتنيته إلا قرأته واستوعبته، فلا تقولوا: وهند الشيخ كتب ما قرأها.

وقد ملأت الكتب غرفة المطالعة من الأرض الى السقف، من كل جانب والغرفة ليست صغيرة. وقد كان في نيتي أن أجعل الدار كلها مكتبة: أطبخ في المكتبة. وأنام في المكتبة. وأستقبل الضيوف في المكتبة، وأنام في المكتبة فتتخذ من الكتب وطاءنا وغطاءنا، إذا عرينا اتخذنا من ورق الكتب ثياباً وإذا هوجمنا في عقر دارنا اتخذنا من الكتب متاريس وقذائف، والويل ثم الويل لمن يقع على رأسه كتاب، والويل ثم الويل لي تنهار عليه الكتب من كل جانب فتقتله كما انهارت كتب الجاحظ عليه فقتلته. ولعل كتاب البيان والتبيين هو الذي أجهز عليه.

لم تعرض مشكلة في اللغة في إحدى دوائر الحكومة، أو أحد مجالس الآداب إلا سألوني عنها لأنهم يعرفون أن مظان هذه المشكلة لا توجد الا في مكتبتي. وقد أكون من العارفين بهذه المظان.

الوداع يا كتبي! لست أدري ما حل بك بعد رحيلنا. أبهت، أحرقت، أنقلت معززة مكرمة الى مكتبة عامة أو خاصة. أصرت الى دكاكين البقالين تلف بأوراقك المبيعات ولو كانت بصلاً.

الوداع يا كتبي.

يعز عليّ أن أحرم منك وأنا على أهبة الرحيل من هذه الدنيا، وهل يستطيع من كان بقي على أهبة الرحيل، والبقية الباقية من عمره لا تزيد عن أربعين أو خمسين سنة أن ينشىء مكتبة جديدة؟

يعز عليّ أن أحرم منك وقد كنت غذائي الروحي. وكنت ولا أزال شرهاً الى هذا الغذاء. فقد كنت ألازمك في ليلي ونهاري. ولم يزرني أحد في الليل أو النهار إلا وجدني مكباً على كتبي. أما وقد فقدتك فقد ذهب العمر ضياعاً.

وهنا أرفع صوتي قائلاً: من له أذنان لتسمع فليسمع، من وقع في يده كتاب من كتبي فليتفضل برده اليّ وله الأجر والثواب.

— ٥ —

اني من الذين يقرأون كثيراً ، ولي لذة في قراءتي لا في ذاتي وخصوصي . وأحمد الله أني الى الآن لا أستعمل نظارتين، على حين أن كثيرين من اصدقائي من أبناء زماني بل ممن هم أصغر مني سناً لا يستطيعون القراءة إلا إذا استعملوا النظارات ، وكم أغيظهم حين يتفقدون نظاراتهم فلا يجدونها . فأقرأ وهم لا يستطيعون أن يقرأوا .

بل أحمد الله أني في تجدُّد مستمرٍّ كأن ابرهيم الخوراني عناني حين قال :

قدُم الزمان وهمتي تتجدَّدُ فكأنني في كل يوم أولدُ

أرحب بالآراء الجديدة على حين أن كثيرين من أبناء زماني ، بل ممن هم أصغر مني سناً ، تُعرض عليهم الفكر الجديد فيستوحشون منه ، ويلجأون الى قديمهم .

وإني لأستغرب كيف يطيق أبناء هذا العصر ، عصر المطالعة ، أن تمر الأيام تلو الأيام ، بل الشهور تلو الشهور ، بل السنون تلو السنين ، وهم لم يطالعوا كتاباً . تدخل الى بيوتهم فلا تجد فيها كتاباً ، قد يبالغون في اقتناء الرياش الغالي . فإذا زرتهم حسبت بيوتهم معارض للطرائف والتحائف ، وأما الكتب فلا يعيرونها أقل اهتمام ، على حين أن بعضهم يشغلون مناصب عالية . ومع ذلك يكتفون بما حصلوه أيام الحداثة في المدارس الابتدائية على قلته وتفاهته . هؤلاء لا أكفُّ عن تقريعهم وحثهم على المطالعة ، ولا بدَّ أن أنجح فلا تمر خمسون أو ستون سنة من تاريخه أعلاه أو أدناه حتى أرى في كل بيت مكتبة ان شاء الله.

ومن الغرائب في هذا الباب أن أحدهم كان مولعاً باقتناء الاحذية . فإذا زاره زائر أخذه الى خزانة الأحذية ، وقال :

أنظر هذا حذاء للصيف . وهذا حذاء الشتاء . وهذا حذاء للحفلات ، وهذا حذاء للسهرات ، فقال له أحد الظرفاء :

ما هذا يا سيدي ؟ أهي كتب نفيسة ؟!

* * *

المعرفة نوعان : ما وعاه الصدر ، وما وعاه القطر .

إذا سئلت ، فأجبت فمعرفتي من النوع الأول ، وإذا سئلت فرجعت الى كتبي فمعرفتي من النوع الثاني .

وقد مر بي دور كنت اعتمد فيه على ما وعاه صدري ، فكنت كما قال الامام الشافعي :

علمي معي حيثما يممت يتبعني صدري وعاء له لا بطن صندوقي

إذ كنت في البيت كان النعم فيه معي أو كنت في السرق كان العز في السوق

كنت إذا كتبت أرسل القلم على سجيته لا يخاطر في نفسه . ولا أراجع كتابتي . وإذا ضمني مجلس ، فتشقنا في الحديث من موضوع الى موضوع . من العلم الى الفلسفة الى الدين الى السياسة، الى الاجتماع، الى غير ذلك من علوم الأولين والآخرين، أحدث الحديث كله عن حسابي ، كأن لسان حالي يقول :

عني خذوا ، وبي اقتدوا

أعوذ بالله من الغرور .

ثم دخلت في دور ثان أصبحت معرفتي فيه من النوعين معاً : قد أسأل فأجيب، ولكن أقول : ومع ذلك أعانوا نفتش عن الجواب في مظانه . ولا يستفيد من الكتب إلا الذي خالطها ، واعتاد الرجوع اليها ، والتنقيب فيها . وإلا فلا تفيده الكتب شيئاً .

ثم دخلت في دور ثالث تسرَّب اليَّ فيه الشك في كل ما وعاه صدري ، فتناسيتُه ، وجعلت اعتمادي كله على ما وعاه قطري .

أما اليوم وقد ذهب القسطر كما ذهب ما في الصدر فاوزن في . لقد أصبحت من أجهل الجاهلين .

لقد أصبحت أخشى إذا رويت بيتاً من الشعر ان أنسبه الى غير قائله . واذا ضمني مجلس فخضنا في الفلسفة ان أنسب ما قاله سقراط الى ارسطو ، وأنسب ما قاله نيتشه الى شوبنهاور، واذا ذكرنا مكاناً في أقصى الجنوب ان أقول انه في أقصى الشمال . واذا استشهدت بآية أو مثل أن أجعل الآية مثلاً ، وان أجعل المثل آية ، وإذا تكلفت اللغة الفصحى ان أرفع المنصوب، أو أنصب المرفوع على نحو ما وقع في الحكايات التالية :

كنا خمسة في سيارة فجعلنا نتناشد الأشعار الى أن أتينا على المتنبي . فجعل كل واحد يروي شيئاً من شعره . وكان أحدنا يسمع ولا يتكلم ، فلما جاء ذكر المتنبي خرج عن صمته فقال : لا يعجبني من شعر المتنبي إلا قوله :

قم في الدجى يا أيها المتعبد حتى متى فوق الأسرَّة ترقد

وهو مطلع قصيدة لابن زجي الكبير وردت في كتابه مجمع البحرين ، فلم يسع أحدنا وهو أكبرنا سناً إلا أن قال : ليتك بقيت صامتاً .

كان أحدهم في حلقة من أدباء ، وكانوا يتناشدون الأشعار ، ولا يذكرون بيتاً من الشعر إلا نسبوه الى صاحبه ، وأشاروا الى مواطن الاحسان والاساءة فيه ، فما كان من صاحبنا إلا أن قال :

إن هرون الرشيد لم يكن يعجبه إلاّ شعر خليل مطران.

كان أحدهم اذا ضمه مجلس يتكلف اللغة الفصحى وهو يجهلها . فتخرج من فيه يلمن بعضها بعضاً ، ومع ذلك كان العامة يحسبونه من العلماء . لأن العالم عندهم هو الذي يتكلم فلا يفهمه أحد . ففي أحد هذه المجالس قال في سياق حديثه : رأيت الرجلُ بضم اللام في الرجل . وكان في المجلس بعض الأساتذة ، فلم يسع أحدهم إلاّ أن صاح به :

افتح اللام يا هذا ! فقال : صحيح ، صحيح ، سيدا

* * *

لنرجع الى موضوعنا .

تركنا القدس في الساعة السادسة صباحاً من يوم الجمعة ١٩٤٨/٤/٣٠ في سيارة مدرستنا ، وكان يسوقها الفتى عبد الوافي عرفات . وقد كنت أخشى أن يكون قد غير رأيه اذا رأى الخطر فأحجم عن اقتحامه . لو فعل لكان في سعة من العذر . ولكنه لم يلبث أن جاء قبل الموعد . فأعجبت بشجاعته ، وعلو همته ، وقوة ارادته . وهنا محل لأن أثني عليه أطيب الثناء .

الطرق خالية ، وما تحركت السيارة حتى انهال علينا الرصاص من كل جانب .

أسرع يا عبد الوافي أسرع ! لعلنا ننجو

وصلنا مدينة الخليل ، وكان في فم الطريق حرس مسلح . فوقفنا نسألهم ويسألوننا . ثم جعل كثيرون ينحدرون من أعالي الجبال وسلاحهم في أيديهم ليسمعوا أخبارنا ، وكان بينهم كثيرون نعرفهم ويعرفوننا منهم السيد أحمد حجة مختار قرية دوره من جبل الخليل ، وهو من أصدقاء ابرهيم أبو دية . وقد اشترك في معارك كثيرة من معارك القطمون فأبلى فيها البلاء الحسن . وهو ذو شطاط كقدر الرمح ، تلوح على وجهه علائم النجابة والشجاعة . فما رآنا أقبل يجاملنا ، ويطيب خواطرنا ، ويسأل عن صديقه أبو دية ثم ودعناه وقلنا للسيارة .

مصر ، يا سيارة ، فسيري وخبدي

فخري السقاكيني